الباب الرابع

فتنة النساء

وحضّهم على توقّيها

جاء فى الحديث الشريف (ما تركتُ بعدى فتنةً أضرَّ على الرجال من النساء) .

« قال أئمّة اللغة : جماعُ معنى الفتنة : الابتلاءُ والامتحانُ والاختيارُ ، وأصلُها من قولك فَتَنْتُ الذهب والفضة : إذا أذبتَهما بالنار لتميّز الردىء من الجيّد ، قال ابنُ الأثير فى النهاية : وقد كثُر استعمال الفتنة فيما أخرجهُ الاختبارُ المكروه[1] ، ثم كثُر حتى استعمل بمعنى الإثم والكفر ، والقتال ، والإحراق ، والإزالة والصَّرف عن الشىء[2] . أقول : ومعنى الحديث : أخافُ أنْ يُعجبَ الرجالُ بالنساء ويُغرَوا بهنّ فيشتغلوا بهنّ عن العمل النافع المُجْدِى فى الدنيا والآخرة » .

* * *

وجاء فى الأثر (إنّكم ابتُليتُم بفتنةِ الضّراء فصبرتُم ، وإنى أخاف عليكم فتنةَ السَّرّاء ، وإنّ مِنْ أشدِّ ذلكَ عندى النساء إذا تحلّين الذهب ، ولبسْنَ رَيْط الشام ، وعَصْبَ أيْمَن ، فأتعبْنَ الغنىّ ، وكلّفْنَ الفقيرَ ما لا يجد) .

« ابتُليتُمْ بفتنةِ الضّراء إلى آخره يريد : أنكم إختُبِرتُمْ بالفقر والشدّة والعذاب

---

(١) أى فى الشىء يختبر فتكون نتيجة هذا الاختبار بلاء ونقمة كالافتتان بالنساء مثلا .

(٢) انظر لسان العرب مادة فتن فهناك ما ينفع غلتك .

فصبرتم على ذلك ، وإنَّ أخوفَ ما أخافهُ عليكم هو فتنة السَّرَّاء ، وهى الدنيا الواسعةُ والراحةُ والنَّعْمَةُ ، وأشدُّ ما أخافهُ عليكم من فتنةِ السَّراء هو النساء إذا تحلَّيْنَ الذهب الخ ، والرَّيْطُ جمع ريطَة : وهى المُلاءة إذا كانت قطعةً واحدة ولم تكن لِفقَيْنِ ، والمصبُ : بُرْدٌ يصبَغُ غَزْلُه ثم يُنسَج » .

* * *

وفى الحديث أيضاً (اتقوا الدنيا واتقوا النساء فإنَّ إبليسَ طَلاَّعٌ رصَّاد وما هُوَ بشىءٍ من فخُوخِهِ بأوثقَ لصيده فى الأتقياء من النساء) .

« طلاعٌ يريد هجَّام ، يقال : طلع علينا فلان هجم ؛ ويقال : رجل طلاَّعُ الثنايا : مُجرِّبٌ للأمور رَكَّابٌ لها يعلوها ويقهرُها ويهجم عليها بشدة وغلبة ، وقوله : رصادٌ : أى رقَّابٌ وثاب كما يرصدُ القُطَّاع القافلة فيَثِبُون عليها ، ثم قال وماهو بشيءٍ من فَخُوخِه الخ فالفخوخُ جمع فَخٍّ : آلة الصيد ، ومن المجاز وثَبَ فلانٌ من فخِّ إبليس : إذا تاب يقول صلوات الله عليه : إنَّ إبليس ما يَثِقُ فى صيده الأتقياء بشىء من آلات الصَّيْد وثوقَهُ بالنِّساء ، أمَّا كونُهُن من فخوخ إبليسَ فلأنهُ جعلهُنَّ مصيدةً ، يُزَيِّنُهُنَّ فى قلوب الرجال ويُغْرِيهِمْ بهنَّ فيُورِطُهُم فى الزنا ، كصائدٍ ينصِبُ شبكتَهُ ليصطادَ بها ويُغرى الصيدَ عليها ليقعَ فى حبائلها ، ومِنْ هذا قول بعض الحكماء : ما أيِسَ الشيطانُ من إنسانٍ قط إلاَّ أتاه من قِبَلِ النساء » .

وعن بعضهم : ما أُتِيَتْ أُمَّةٌ قطُّ إلاَّ مِنْ قِبَلِ نِسَائِهم . . .

« وهذه كلمةُ صِدْق يَجِلُّ الوقوف عندها ، واستيعابها والاعتبارُ بها »

ومما يُرْوَى فى فتنة النِّساء أنَّ عابدًا كان فى بنى إسرائيل ، وكانَ مِنْ أعْبَدِ أهلِ زمانه ، وكان فى زمانه ثلاثةُ إخوةٍ لهم أختٌ ، وكانت بكراً ، فخرجَ البعثُ عليهم — أى جاء دورُهم فى التجنيد للحرب — فلم يدرُوا عند مَن يُخلِّفُونَ أختَهم ، ولا مَن يأمَنُونَ عليها ، فأجمعوا رأيَهم على أن يخلِّفُوها

عند العابد ، فأتوه وسألوه أنْ يخلّفوها عنده ، فأبى ذلك ، فلم يزالوا به حتى قال : أنزلوها فى بيتٍ جوار صومعتى ، فأنزلوها فى ذلك البيت ، ثم انطلقوا وتركوها . فمكثت فى جوار العابد زماناً يُنزلُ إليها الطعامَ من صومعته فيضعُه عند باب الصومعة ، ثم يغلق بابَهُ ويصعد صومعتَه ، ثم يأمرُها فتخرجُ من بيتها فتأخذُ ما وضع لها من الطعام ، فتلطّف له الشيطانُ فلم يزل يرغبه فى الخير ويُعظم عنده خروج الجارية من بيتها نهاراً ، ويخوفُه أن يراها أحدٌ فيَعْلَقَها ، فلم يزل به حتى مشى بطعامها ووضعه عند باب بيتها ، ولا يكلمها ، فلبث بذلك زماناً ، ثم جاءه إبليس فرغّبَه فى الخير والأجر ، وقال له : لو كنتَ تمشى إليها بطعامها حتى تضعه فى بيتها ، كان أعظمَ لأجرك ، فلم يزل به حتى مشى إليها بطعامها فوضعه فى بيتها ، فلبث بذلك زماناً ، ثم جاءه إبليس فرغّبَه فى الخير وحضّه عليه ، وقال له : لو كنتَ تكلّمُها وتحدثها ، فتأنسَ بحديثك ، فإنها قد استوحشتْ وحْشَةً شديدة ، فلم يزل به حتى حدّثها زماناً : يطلعُ إليها من فوق صومعته ، ثم أتاه إبليس بعد ذلك ، فقال له : لو كنتَ تنزلُ إليها فتقعدُ عَلَى باب صومعتك وتحدثها .

وتقعد على بابٍ بينها فتحدّثك كان آنسَ لهـــا ، فلم يزَلْ به حتى أنزلَهُ فأجلسَهُ على باب صومعته يُحدّثها وتخرج الجاريةُ من بيتها حتى تقعُدَ على بابها فلبثا زماناً يتحدّثان ثم جاء إبليسُ فرغّبَهُ فى الخير فقال له : لو خرجتَ من باب صومعتك فجلستَ قريباً من بيتها فحدثتها كان آنسَ لها : فلم يَزَلْ به حتّى فعل ، فلبثا بذلك زماناً ، ثم جاءه إبليسُ فقال : لو دنوتَ من باب بيتها : ثم قال لو دخلتَ البيتَ فحدّثتها ولم تتركها تُبرزْ وجهها لأحدٍ كان أحسَن ،

فلم يزلْ به حتى دخلَ البيتَ فجعلَ يُحدِّثُها نهارَه كلَّه فإذا أمْسَى صعد فى صَوْمَعَتِه . ثم أتاه إبليسُ بعد ذلك فلم يزلْ يُزَيِّنُها له حتى ضَرَبَ العابدُ بيده على فخذِها وقبَّلَها ثم لم يزلْ يُحْسِنُها فى عينِه ويُسَوِّلُ له حتى وقعَ عليها فأحْبَلَها فولَدتْ غلاماً فجاء إبليسُ فقال له : أرأيتَ إنْ جاء إخوتها وقد وَلَدَتْ منكَ كيفَ تصنَعَ ؟ فاعْمِدْ إلى ابنِها فاذْبَحْهُ وادْفِنْهُ فإنها ستَكْتُمُ ذلكَ عليكَ مخافةَ إخوتها فقتَلَه . ثم جاءه فقال : أتراها تكتُمُ ما صنعْتَ بها ؟ فخذْها واذبَحْها وادفِنْها مع ابنها فذبَحَها وألقاها في الحفرة فمكثَ ما شاء الله حتى قَفَلَ إخوتُهـــا من الغَزْو . فجاءوهُ فسألوهُ عن أختهم فنعاها لهم وترحَّمَ عليها وبكاها وقال : كانَتْ خيرَ امْرَأةٍ وهذا قَبْرُها فأتى إخوتُها القبرَ فبكوها وترحَّمُوا عليها وأقامُوا على قبرها أياماً ثم انصرَفوا إلى أهاليهم قال : فلما جَنَّهُمُ الليلُ وأخذوا مضاجِعَهُمْ أتاهمْ الشيطانُ فى النوم فبدأَ بأكبرِهم فسألَهُ عن أختِهم فأخبَرَهُ بقولِ العابدِ وبموتِها : فكذَّبَه الشيطانُ وقال : لم يَصْدُقْكُمْ أمرَ أختِكم . إنهُ أحْبَلَها وولدت منه غُلاماً فذبَحه وذبَحها معهُ فرقاً منكم وألقاهُما فى الحفرة خلف، بابِ البيت وأتى الأوسطَ فقالَ له مِثلَ ذلك ثم أتى أصغرهم فقال له مثل ذلك فلما استيقظ القوم استيقظوا متعجِّبينَ لِما رآهُ كُلٌّ منهم فأقبلَ بعضُهم عَلَى بعض يقول : لقد رأيتُ عجباً وأخبرَ بعضُهم بعضاً بما رأى فقال كبيرُهم : هذا حُلُمٌ ليسَ هذا بشيءٍ فامضُوا بِنا ودعُوا هذا فقال أصْغَرُهُمْ : لا أمضى حتى آتِيَ هذا المكان فأنظرَ فيه ، فانطلقُوا فبحثُوا الموضعَ فوجَدُوا أختَهُمْ وابنَها مذبوحَيْنِ فسألُوا عنها العابدَ . فصدَّقَ قولَ إبليس فيما صنَعَ بهما فاستَعْدَوا عليه مَلِكَهُمْ فأنزلَ من صَوْمَعَتِه وقدَّمُوه

لِيَصْلِبُوهُ فامَّا أوثقوه على الخشبة أتاه الشيطان فقال له : قد علمت أنى صاحبك الذى فتنتك فى المرأة حتى أحبلتها وذبحتها وابنها فإن أنتَ أطعتنى اليوم وكفرتَ بالذى خلقكَ خلّصتُكَ مِمَّا أنت فيه . فكفر العابد بالله ، فلما كفر خلى الشيطان بينه وبين أصحابه فصلبوه .

قال وهبٌ ففيه نزلت هذه الآية :

« كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ

* * *

« وبعد » فليس يَجْمُلُ بالقارىء أنْ تَقْتَحِمَ عينُه مِثلَ هذه الإسرائيليات ازدراءُ وقلة احتفال ، فليست العبرة بأنها صدق أو غير صدق ، ولكن العبرة بأنها مِثالٌ جميل لتلك الحالة التى يكثر وقوعُها فى مثل هذا الموقف ، موقف الرجل من المرأة إذا هو خَلَا بها ولم يكن هناك رقيب ، ففى مثل هذا الموقف يقوم الشيطان بدوره وبمثله أدَقُّ تمثيل وصَدَق ما جاء فى الأثر (ما اجتمعَ رجُلٌ وامرأة وليس معهما مَحْرَم إلا كان الشيطان ثالثهما . . . أو ما هذا معناه وقال أبو المهند :

وَأَجْبُرُ مِنْ رَاهِبٍ يَدَّعِي ... بِأَنَّ النِّسَاءَ عَلَيْهِ حَرَامْ
يحزم بيضاء ممكورة ... ويُغنيه فى البَضع عنها الغلام (١)
إذا ما مشى غَضَّ مِنْ طرفِهِ ... وَفى الليل بالدَّير منه عُرامْ (٢)

---

(١) الممكورة : المطوية الخلق من النساء المستديرة الساقين ،

(٢) عرام : شراسة .

وَدير العـــذارى فضوح له وَعند اللصوص حديث الأنام[1]

« قال ابن قتيبة : هؤلاء لصوص نزلوا دير العذارى ليلا ، فأخذوا القَسَّ فشدوه وَثاقا ثم أخذ كل رجل منهم جارية — فتاة — فوجدوهن مفتضّات قد افتضّهن القَس كلهن »

وَقد قرأتُ فى الحيوان للجاحظ حديثاً بديعاً عزاه إلى رجل من الصابئين يُسَمَّى أَبا المبارك الصابى نورده هنا لتعلم مقدار فتنة النساء وَمحلّهن من قلوب الرجال ، وَكان أَبو المبارك هذا قد خَصَى نفسَهُ ، وكان قد أَرْبَى على المائة ، وكان الملوك وَالعظماء يبعثون إليه — وَيَسْمَعونَ منه ، ويَسْمُرُ عندهم ، للذى يجدونَه عنده من الفهم والإفهام ، وطُرَفِ الأخبار ، قال الجاحظ : حدثنى محمد ابن عبّاد قال : سَمِعتُه يقول — وجرَّى ذكر النساء . وَمحلهنَّ من قلوب الرجال حتى زعموا أَن الرجل كلما كان عليهن أَحرص كان ذلك أَدَلَّ على تمامِ الفُحولة فيه ، وَكان أَذهبَ له فى الناحية التى هى فى خلقته ومعناهُ وطبعه ، إذ كان قد جُعِل رجُلاً وَلم يُجْعل امرأَة — قال ابن عباد ، فقال لنا : ألستم تعلمون أَنى قد أَربيت على المـــائة ، فينبغى لمن كان كذلك أَن يكون وهْنُ الكبر ونفاذ الذكر[2] ، وَموتُ الشهوة ، وَانقطاعُ ينبُوع النطفة ، قد أَماتَ حنينه إلى النساء وتفكيرَهُ فى الغزل ، قال : قلنا : صَدقتَ . قال ، وينبغى أَن يكون من عَوَّد نفسَه تركَهُنَّ مُدَداً ، وتخلى عنهن سنينَ ودَهرا أَن تكون العادة وَتمرينُ الطبيعة ، وتوطينُ النفس ، قد حَطَّ من ثقل منازعة الشهوة ، ودواعى الباءة ، وَقد علمتم أَن العادة (التى) هى الطبيعة الثانية ، قد تستحكم ببعض عمدِ

---

(١) دير العذارى : دير قديم بقرب سُرّ من رأى كان به نساء عذارى مترهبات « انظر مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار لابن فضل الله العمرى ومعجم الأزباء لياقوت »

(٢) الذكر هنا بمعنى التذكار .

هَجْرِ لمـــلامَسَة النساء ، قال : قلنا : صدقت . قال : وينبغى أن يكونَ من لم يذق طعم الخلوة بهنَّ ولم يجالسهنَّ متبذلات ، ولم يسمع حديثَهُنَّ وخلابتهنَّ للقلوب ، واستحالتهنَّ للأهواء ، ولم يرهُنَّ منكشفاتٍ عارياتٍ ، إذا تقدم له ذلك معَ طولِ التَّرك ، ألا يكون بقى معه من دواعيهن شىء ، قال ؛ قلنا : صدقت . قال : وينبغى أن يكون لمن قد علِم أنه محبوبٌ ، وأنَّ سببه إلى خِلاطهنَّ محسوم ، أن يكون اليأسُ من أمتن أسبابه إلى الزهد والسلوة ، وإلى موت الخواطر .

قال : قلنا : صدقت . قال : وينبغى أن يكونَ مَن دَعاه الزهد فى الدنيا ، وفيما يحتويه النساء مع جمالهنَّ وفتنةِ النُّساكِ بهنَّ ، واتخاذِ الأنبياء لهن ، إلى أن خَصَ نفسه ، ولم يُكرِهْه عليه أبٌ ولا عدوٌ ، ولا سباه ساب ، أن يكون مقدارُ ذلك الزهد هو المقدار الذى يميت الذكر لهنَّ ، ويُسَرِّى عنه ألم فقد وجودهنَّ ، وينبغى لمن كان فى إمكانه أن ينشىء العزم ، ويختار الإرادة التى يصير بها إلى قطع ذلك العضو الجامع لكبار اللذات ، وإلى ما فيه من الألم ، ومع ما فيه من الخطر ، وإلى ما فيه من المثلة والنقصِ الداخل على الخِلقة أن تكون الوساوس فى هذا الباب لا تعرُوه ، والدواعى لا تقروه . قال : قلنا : صدقت . قال : وينبغي لمن سَخَتْ نفسه عن السَّكَن وعن الولد ، وعن أن يكون مذكورا بالعقب الصالح ، أن يكون قد نسى هذا الباب ، إن كان قد مرَّ منه على ذِكر هذا وأنتم تعلمونَ أنى سَمَلْتُ عينى يومَ خَصَيت نفسى ، فقد نسيتُ كيفية الصُّوَرِ وكيف تروع ، وجَهِلت المراد منها ، وكيف تراد ، أفما كان [من كان كذلك] حَرِيًّا أن تكون نفسُه ساهيةً لا هيةً مشغولةً بالباب

الذى احتمل له هذه المكاره . قال : قلنا صدقت . قال : أولو لم أكن هَرِماً ، ولم يكن هاهنا طولُ اجتنابٍ ، وكانت الآلةُ قائمةً أليس فى أنّى لم أذُقْ حيوانا منذُ ثمانينَ سنة ولم تَمْتَلِ عروقى من الشراب مخافةَ الزيادة فى الشهـــوة ، والنقصانِ من العزم أليسَ فى ذلك ما يقطع الدواعى ، ويُسْكِن الحركة إن هاجت ؟ ! قال : قلنا صدقت . قال : فإنى بعدَ جميع ما وصفتُ لكم ، لأسمعُ نغمةَ المرأةِ فأظنُّ مرّةً أنّ كبدى قد ذابت ، وأظن مرةً أنها قد انصدعت وأظنُّ مرةً أن عقلى قد اختلس ، وربّما اضطربَ فؤادى عند ضَحِك إحداهُنّ حتى أظن أنه قد خرجَ من فمى ، فكيف ألوم عليهنّ غيرى ! ؟

قال الجاحظ : فإن كان (حفظك الله تعالى) قد صدقَ على نفسه فى تلك الحال ، بعد أن اجتمعت فيه هذه الخصال ، فما ظنك بهذا قبل هذا الوقت بنحو ستّينَ سَنَةً أو سبعين سَنَةً ! ؟

وما ظنك به قبلَ الخصاء بساعة ؟ ! وليس فى الاستطاعة ولا فى صفةِ الإمكان ، أن يحتجز عن إرادة النساء ، ومعه من الحاجة اليهنّ والشهوة لهنّ هذا المقدار ! الله تعالى أرحَمُ بخلقه ، وأعدَلُ على عباده ، من أن يكلّفهم هجرانَ شىء ، قد وصلَه بقلوبهم هذا الوصلَ واكدَه هذا التأكيد .

وفى الأثر « إنّ المرأةَ تُقبِلُ وتُدْبِرُ فى صُورَةِ شيطان فإذا أبْصَرَ أحَدُكم امرأةً فأعْجَبَتْه فليَعْمِد الى امرأتِه فَلْيُوَاقِعْها فإنّ ذلك يَرُدُّ ما فى نفسه (قوله) : إنّ المرأة تقبلُ وتُدبر فى صورَة شيطان ، إشارَةٌ إلى أنّها تدْعو إلى الهَوَى والفتنة بجَمالها وما رُكِّبَ فى طِباع الرجل من الميل اليها ، كما يَدْعو الشيطانُ بوَسْوَسَته وإغْوائه لذلكَ ، وقوله : فإذَا أبْصَرَ أحدكم امرأة الخ تنبيه الى دواء الداء المُحَرِّكِ للشهوة ، باطفائه بالمُواقَعة وتسكين النفس بإراقةِ ما تحرّك من الماء » .

وقال يُونُس بنُ عُبَيد : صَحِبْتُ الحَسَنَ البَصْرِىَّ ثلاثين سنةً ، ما سمعتهُ قطُّ خاض فى شىءٍ مِمَّا يخوضُ فيه النَّاسُ من أمْرِ الدنيا ، إنَّما كانَ أكثرَ ذِكره الموْتُ ، حتى أتته امرأةٌ يوماً ناهيكَ من امْرَأةٍ شبابا وجمالاً وشحْما ولحما ، يَدْفَع بَعضُها بَعضاً ، فجلَسَتْ بينَ يَدَيْهِ وقالت : يا شـــيخ ، أيَحِلُّ للرجل أن يَتزوَّجَ على امرأته وهِى شابَّةٌ جميلةٌ وَلودٌ ؟ قال : نعم ، أحَلَّ الله له أربعا ، قال : فكَشَفَتْ عن وَجْهٍ لم يُرَ مثلُهُ حُسْناً وقالت : أوَعَلَى مِثْلِى ؟ قال : نعم ، قالت : سبحانَ الله العظيم ، بعَنْشكَ يا أبا سَعيد لا تُفْتِ الرجال بهذا ، ثم قامت منصرفة ، وأتْبَعَها الحسنُ بَصَرَه ، قال : ما ضرَّ امرأً كانت هذه عنده ما فاتهُ مِن دُنياه ...

* * *

وعَن عائشةَ رَضِىَ الله عنها وكُلُّكم حَصَانٌ ما لَمْ يُراوَدْ .

« حَصَان : عفيف ، ومالم يراوَدْ : مالم تتعرَّضْ له النساء » .

* * *

وعتبت الأسودَ الخاقانىَّ امرأتهُ على هَوًى له فقال :

وَيْكِ إنَّ اللَّامَ يُغرِى المَلُوما ... ليس جُرْمِى كما زَعَمْت عظيما
إنْ أكُنْ عاشِقاً فلم آتِ إلاّ ... ما أتتْه الرجالُ قَبْلِى قديما
إنَّما يَكْبُرُ التعجُّبُ مِمَّنْ ... كانَ مِنْ فتنَةِ النســـاء سَليما

* * *

وقال بَعضُهم : لقيت امرأةً مِن قَوِى بِمَكَّةَ ، فجلَسْتُ أُحَدِّثُها ، وعَبدُ الله ابنُ عَبَّاس رَضِىَ الله عنه يُصَلِّى ، فَسَمِعَنى أقول لها : يا فلانةُ ، استَوْحَشَ

لفراقك القلب ، وجاورنى مَن لا أهوَى ، فسكنتُ كما قال الأوّل :

أيبعدُ مّن أهوَى ونُسعِفُنا النّوى ... بِمَنْ لا يبالِى أن يُفارِقَهُ أهلِى

فأقبلَ علىَّ ابنُ عَباس وقال : مَن هذه مِنكَ ؟ قلتُ : مِنَ العَشيرة وَبناتِ العَمّ ، فقال قُمْ وإلاّ وَقَعْتُما فى فتْنَة ؛ إنّ النِّساء حَبائلُ الشيطان ، فإياكَ أنْ تخلُوَ بامرأة إلاّ أنْ تكونَ مَحْرَماً ، « حبائل الشيطان : مَصَايدُه ، واحدها حِبالة — بكسر الحاء — وهو ما يُصادُ به مِنْ أىّ شىء كان ، والمَحْرَم : ذاتُ الرحم فى القرابة أى لا يَحِلُّ تزويجُها » .

وقال حكيم : أضرُّ الأشياء بالمال والنفس والدِّين والعقل والعِرْض شِدّةُ الإغرام بالنِّساء ، ومن أعظَم ما يُبْتَلَى به المُغرم بِهِنَّ أنه لا يَقْتَصِرُ على ما عنده مِنهن ، ولو كُنَّ ألْفاً ، ويَطْمَحُ إلَى ما ليس له مِنهُنَّ ... :

وقال أبو فِرَاسَ الحمدانى :

لَقَدْ ضَلَّ مَن تَحْوِى هواهُ خَرِيدَةٌ ... وقد ذَلَّ مَن تَقْضِى عليه كَعابُ

وقال المتنبى :

ومَن خَبَرَ الغوانِى فالْغوانِى ... ضِياءٌ فى بواطِنِهِ ظلام

« يعنى المتنبى : انّهُنَّ يُتْعِبْنَ مَن يَصْبو اليهن ويَعْلَق قلبُهُ بِحُبِّهِنَّ »

وَمِمّا يَصِحّ إيراده هنا وإن كان سيأتى أشباهه فى موضع آخر من هذا الكتاب قول بعضهم :

لا يَأمَنَنَّ على النِّساء أخٌ أخاً ... ما فى الرجال على النِّساء أمِينُ

وقول المَعَرِّى :

اذا بلغ الوليدُ لديكَ عَشْراً ... فلا يَدْخُل على الحرم الوليدُ

فإنْ خالَفْتَنِي وأَضَعْتَ نُصْحِي ... فأَنْتَ — وإنْ رُزِقْتَ حِجًا — بليدُ

أَلاَ إنّ النِّســـاءَ حِبَالُ غَيٍّ ... بِهِنّ يُضَيَّعُ الشرف التّليدُ

وقول الأخطل :

المُهْدِياتُ لِمَنْ هَوِينَ مَسَبَّةً ... والمُحْسِنَاتُ لِمَنْ قَلَيْنَ مَقالا

واذا وَعَدْتُكَ نائِلاً اخْلَفْتَه ... ووجَدتَ دون عِداتِهِنَّ مِطالاَ

واذا دَعَوْنَكَ عَمَّهُنَّ فإنَّهُ ... نَسَبٌ يزيدُك عندهُنَّ خبالا

واذا دَعَوْنَك بالأَخَيَّ فإنَه ... أدْنَى وأقربُ خُلَّةً ووِصالا

وقد نظر الطبيب الشاعر الأندلسى أبو بكر بن زهر الى أبيات الأخطل فى أبياته الطريفة التى قالها حين شاخ : وغلب عليه الشيب .

إنّى نَظَرْت إلَى المرآةِ قد جُلِيَتْ ... فأنكرَتْ مُقلتاىَ كُلَّ ما رأتا

رأيتُ فيها شُوَيخًا لستُ أعرِفُهُ ... وكنتُ أعْهَدُهُ من قَبْل ذاك فَتَى

فقلتُ أينَ الذى بالأَمْسِ كان هُنَا ... مَتَى تَرَحَّلَ عن هذا المكانِ متى

فاستَضْحَكت ثم قالت وهى مُعْجَبَةٌ ... إنّ الذى انكرَتْه مُقلتاكَ أتى

كانت سُلَيمى تنادِى ياأخَىّ وقد ... صارت سليمى تنادى اليوم ياأبتا

وقال الكُمَيْت :

وَمَنْ يُطِعِ النِّساءَ يُلاقِ مِنها ... إذا أَغْمَزْن فيه الأقْوَرِينا

« يقال : أَغْمَزَ فى الرَّجُل إغْمازاً : استَضْعَفَهُ وعابَهُ وصَغَّرَ شأنَهُ ؛ والأقورين : الدواهى ، يقول : مَن يُطِع النساء اذا عِبْنَهُ وزَهِدْنَ فيه يلاقِ الدَّوَاهِى التى لا طاقَةَ له بها » .

ونورد هنا لمناسبة طاعة النِّساء وَصيَّة الأعْرابيّة التى أوصَت ابنتَها عند إهدائها — زفافِها — بما يأتى : اقلعى زُجَّ رُمْحِه ، فإنْ أقَرَّ فاقلعي سِنانَه

(سنانَ رُمحِه)—فإنْ أقرَّ فاكسِرِ العظامَ بسَيْفِهِ ، فإنْ أقرَّ فاقْطَعِ اللحمَ على تُرْسِهِ ، فإنْ أقرَّ فضَعِ الإكافَ على ظَهْرِه فإنَّه حِمار » وقد تقدم هذا »

* * *

وعن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : لا يَخْلُوَنَّ رَجُلٌ بامرأةٍ إلا مع ذى مَحْرَم « ذو المَحْرَم : مَن لا يَحِلُّ له نِكاحها من الأقارب ، كالأب والابن والعمّ ، ومَن يَجْرِى مَجراهم »

وفى حديث آخر : لا يَخْلُوَنَّ رَجُلٌ بامرأة ، فأيُّما رَجُل خلاَ بامرأة كانَ الشيطانُ ثالِثَهما .

وعن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ (إيّاكم والدُّخولَ على النِّساء ، قالوا : يارَسول الله . أفرَأيْتَ الحَمْوَ ؟ قال : الحَمْوُ المَوتُ

« وحَمْوُ المرأة وحَمُوُها : أبو زوجها وأخو زَوجها وكذلك من كانَ مِن قِبَلِهِ ، قال ابن الأعرابى : قولهم الحَمْوُ الموت : كلمة تقولها العرب كما تقول الأسَدُ المَوت أى لِقاؤه مثلُ الموت وكما تقول السلطان نار ، فمعنى قوله الحم الموت أنّ خلوة الحم معها أشدمن خلوة غيره من الغرباء ، لأنه ربما حَسَّنَ لها أشياء وحَمَلَها على أمور تَثْقُلُ على الزوج ، من التماس ما ليس فى وُسْعِه أو سوء عشرة أو غير ذلك ، لأنّ الزوج لا يُؤثِر أن يَطَّلِعَ الحَمُ على باطن حالِه بدخول بيته ، قال الإمام الأزهرى : كأنه ذهب الى أن الفَساد الذى يجرى بين المرأة وأحمائها أشَدُّ من فساد يكون بينها و بين الغريب ، ولذلك جعلها كالمَوت ؛ وعبارة المناوى فى شرح الحـــديث : أى أنَّ دخُول الحَمْوِ على زَوجَةِ أخيه يُشْبِهُ المَوت فى الاستقباح والمَفْسَدَةِ ، و إنما بالغ فى الزَّجر لتسامُحِ الناسِ فى ذلك حتى كأنّه غَيرُ اجْنَبِىّ من المرأة ، وخرج هذا مخرج قولهم : الأسد الموت ، أى لِقاؤه يُفْضى اليه ، وكذا دخول الحَمْوِ عليها ، يُفْضى الىَ مَوت الدين ، أو إلى مَوتها بطَلاقِها عند غَيرَة الزَّوج أو بَرَجْمِها إن زَنَتْ معه ، وقد بالَغَ مالِك — هو الإمام مالك صاحب المذهب — فى هذا

الباب حتى منع ما يجرُّ إلى التُّهَم كخلوة امرأةٍ بابنِ زوجها ، وإن كانت جائِزَةً ؛ الى أن قال : والحَمُو : أخ الزَّوجَ وقريبه » .

وَصفُهُنَّ بغلبة الرجال

قال أحدهم لمعاويةَ بن أبي سفيانَ : يا أميرَ المُؤمنين ، كيف نَنْسُبُكَ إلى العقل وقد غَلَبَ عليكَ تِصْفُ إنسان — يريد غَلَبَةَ امرأتِه عليه — فقال مُعاوية هذه الكلمةَ البَليغة البعيدةُ الغَور : إنَّهُنَّ يغلبن الكرام ويغلبهُنَّ اللِّئام ...

وقال صاحب بن ذبيان :

وَيَجْمَعْنَ ضَعْفاً واقتداراً على الفَتى أليسَ عجيباً ضَعفُها واقتِدارُها

وقال جرير :

انَّ العيونَ التى فى طَرْفِها مَرَضٌ قتلننا ثم لم يُحْيِينَ قتلانا[1]

يَصْرَعْنَ ذا اللُّبِّ حتى لَاحِرَاكَ به وَهُنَّ أضْعَفُ خَلقِ الله أركانا

وقال هارون الرشيد فى ثلاث من جواريه :

مَلَكَ الثلاثُ الآنسات عِنانى وحَلَلْنَ من قلبي بكُلِّ مكانِ

مالى تطاوعُنى البَرِيَّةُ كلُّها وأُطيعهُنَّ وَهُنَّ فى عِصْيَانِ

ما ذاكَ إلاَّ أنَّ سُلطانَ الهَوَى وبِهِ يَصُلْنَ أعزُّ من سلطانِي

ويقال : إنَّ العباسَ بن الأحنف هو صاحب هذه الأبيات قالها على لسانِ الرشيد حين طُلِبَ اليه ذلك ، وهى بِنَفْسِ العبَّاس أشْبَه »

وقال سليمانُ بن المستَعين الخليفة الأُموى الأَنْدَلُسِيّ يعارِضُ الرشيد :

---

(١) قوله قتلننا قال السيد المرتضى فى أماليه : المعنى كدْن يقتلننا ثم قال : فأما قوله : ثم لم يحيين قتلانا فإن معناه انَّهن لم يزلن يفعلن ماقاربنا عنده الموت والقتل ، من الصدود والهجر وما أشبه ذلك ، وسمى هذه الأمور قتلا كما سمى أضدادها حياة .

عَجَباً يَهابُ الليثُ حَدَّ سِنانِي ... وأهابُ لَحْظَ فَوارِرِ الأجفانِ
وأُقارِعُ الأهوالَ لا مُتَهَيِّباً ... منها سوى الإعراضِ والهِجرانِ
وتَمَلَّكَتْ قلبي ثلاثٌ كالدُّمَى ... زُهْرُ الوُجوهِ نَواعِمُ الأبدانِ
كَكواكِبِ الظَّلماءِ لُحْنَ لناظِرٍ ... مِنْ فَوْقِ أغصانٍ على كُثبانِ
هٰذي الهِلالُ، وتلكَ بِنتُ المُشْتَرى ... حُسْناً، وهٰذي أُخْتُ غُصْنِ البانِ
حاكَمْتُ فيهِنَّ السُّلُوَّ إلى الصِّبا ... فَقَضى لِسُلطانٍ على سلطانِ
فأبَحْنَ مِنْ قَلْبي الحِمى وتَرَكْنَني ... في عِزِّ مُلْكي كالأسيرِ العانِي
لا تعذلوا ملكاً تَذَلَّلَ في الهَوَى ... ذُلُّ الهَوَى عِـــزٌّ ومُلْكٌ ثانِ
ما ضَرَّ أنّي عبــــدهُنَّ صَبابَةً ... وبَنُو الزَّمانِ وهُنَّ مِن عُبْدانِي
إنْ لم أُطِعْ فيهِنَّ سلطانَ الهوَى ... كُلِفاً بِهِنَّ فَلَسْتُ مِنْ مَرْوانِ

وقال الأميرُ عبد الله بن طاهر:

نَحنُ قَومٌ تُلينُنا الحَدَقُ النُّجْـ ... ـلُ عَلَى أنَّنـــا نُلينُ الحَديدا
طَوَّعَتْ أيْدِيَ الظِّباءُ تَقُدُّنا العِيـ ... ـسُ ونَقْتادُنا بالطِّعانِ الأسُودا
تَملكُ الصَّيدَ ثُمَّ تَملِكُنا البِيـ ... ـضُ المَصونات أعْيُناً وخُدودا[1]
تَتَّقي سُخْطَنا الأُسودُ ونَخْشَى
سَخَطَ الخِشْفِ حينَ يُبدي الصُّدودا[2]
فَتَرانا يومَ الكَريهَةِ أحْـــرا ... راً وفي السِّلمِ للغَوانِي عَبيدا[3]

وبعد فقد بانَ لك مما أسلفنا في عبقرياتهم في فتنة النساء أن النساء بحق فِتنةُ الفِتَن، وهذا مِمَّا لا ريب فيه، فكَمْ ماتَ بِهِنَّ مِن كَريم، وعَطِبَ بِهِنَّ

(١) الصيد يريد الملوك. (٢) الخشف ولد الظبي يُشبه به الانسان.
(٣) يوم الكريهة: يوم الحرب والطعان.

مِن سليم ، وجُنَّ بهن من عاقل وكم وكم ، وإذنْ كان الأمثل بالرجل أن يبقى على نفسه وعلى عقله وعلى ماله وعلى عرضه وعلى دينه ، وعلى خُلقه بالابتعاد عن أسباب الافتتان بهن ما وَجَـــدَ إلى ذلك سبيلا . وأن يستمتع بهن فى حدود الشريعة أعنى فى حدود العقل والمثل العليا ، وكذلك كان الأمثل بالرجل أن يحفظ من يرعاه من النساء ، وأن يصونهن ولا يُعَرِّضَهُنَّ لافتتان الرجال بهن ، فإن كلّ راع مسئول عن رعيته ، والرجل راع مَسئول عن زوجته وبناته وسائر من يرعاه من النساء .

هذا : ومن باب فتنة النساء ما حكاه الله سبحانه فى حق الزوجات مِنّ أنّ منهن مَن هُن عَدُوّات للرجال يَشْغَلنهم عن كل نافع لهم ، قال جل ذكره (يا أيُّها الذين آمَنُوا إنّ مِن أزواجِكم وأولادِكُم عَدُوًّا لكم فاحْذَرُوهم ، وإنْ تَعفُوا وتَصفَحُوا وتَغفِرُوا فإنَ الله غفور رحيم) يقول سبحانه : إنَّ مِنَ الأزواج أزْواجاً يُعادِينَ بُعُولَتَهُنَّ ويخاصمْنَهم ويَلْبَسْنَ عليهم ، ومِن الأولاد أولادًا يُعادُونَ آباءهم ويَعُقُّونَهم ويُجَرِّعونَهم الغَصَص والأذى ، فكونوا من هؤلاء جميعاً على حذر .

ولا تأمنوا غوائلهم وشرّهم ، أو تقول : إن منْ هؤلاء جميعاً — الأزواج والأولاد — من هو فتنةٌ لكم يَصُدُّونكم عن كُلّ ما يُجدى عليكم وينفعكم فى الدنيا والآخرة ، فلا تفتتِنوا بهم وخالفوهم ، وإنْ تعفوا عنهم وتصفحوا وتغفروا فإن الله غفور رحيم ، قيل : إن ناساً أرادوا الهجرة عن مكة إلى المَدينة فثبَّطهم أزواجُهم وأولادُهم وقالوا : تَنطَلِقُون وتضيعُوننا ا فرَقُوا لهم ووَقفُوا ، فلمّا هاجَرُوا بعد ذلك وَرَأَوُا الذين سبقوهم قد فقهُوا فى الدين أرادوا أن يعاقبوا أزْواجَهم وأولادَهم فحَسَّن الله لهم العفو .